الكلمـــات الأخـــيرة

أن تعرف وأن تنمو ، كل شىء تتم رؤيته فيما بعد

أود أن أنهى هذا الكتاب بمقالة عرضتها فى مؤتمر برسيف فى أبريل ١٩٩٢ ، وضَّحت فيها بعض التحليلات حول الإطار الواقعى للحياة اليومية ، شارحاً العبارة التى افتتحت بها كلماتى الأخيرة : " أن تعرف وأن تنمو كل شىء تتم رؤيته فيما بعد " وهى المهمة التى طلب منى منظمو الاجتماع تناولها.

ونقطة البداية فى تفكيرى هى العودة إلى هذه الجملة موضوع فضولى المعرفى ، وهذا يستدعى أولاً وقبل كل شىء تعلم معنى الجملة ، وهذا يتطلب فهم الكلمات المكونة لها وعلاقتها ببعضها .

وأولاً : نحن نواجه فكرتين ، فكرة " لكى نعرف وننمو " وفكرة " ترى كل شىء " والفعلان الموجودان فى الجزء الأول والذى يمكن استخدام اسمين بدلاً منهما وهما " المعرفة " و" النمو " وهما مرتبطان بأداة ربط هى " و " . وفى الواقع تحمل الفكرتان إمكانية الوصول إلى : عملية المعرفة وعملية النمو فى اتصالهما ، كما يمكن أن نرى أن عملية المعرفة تتضمن النمو ؛ إذ ليس من الممكن أن نعرف دون نمو من نوع ما، وليس من الممكن أن ننمو دون معرفة من نوعاً ما .

والفعل "يعرف" فعل متعد ويشير إلى حركة ما، ويسبقه فاعل ثم مفعول دون حرف جر، ولذا فإن تكملة هذا الفعل قد نسميها "مفعول مباشر"، والشخص الذى يعرف إنما يعرف شيئاً ما فقط : أعرف الألم الذى يؤذينى " فكلمة الألم " هنا هى المفعول المباشر لكلمة " أعرف " ؛ أى إنه مفعول عملية المعرفة .

وعلى الجانب الآخر ففعل " ينمو " فعل لازم (جامد) لا يحتاج إلى تكملة توضح المعنى ، وكل ما نستطيع أن نضيفه له هو وصف الحالة أى " لقد نموت بألم " " نموت محافظين على حب الاستطلاع " وفيهما كلمة " بألم"، و" محافظين على حب الاستطلاع " يوضحان طريقة نموى . ولنركز الآن على عملية المعرفة .

عندما نسأل أنفسنا عن عملية المعرفة كظاهرة حيوية ، نستطيع مبدئيًّا تحديدها بأنها عملية تحدث أثناء الحياة، وليس خلال حالة مجرد الوجود. فنحن معشر النساء والرجال نصنع عبر التاريخ أشياء من خلال المواد التى تتيحها لنا ظروف الحياة . والمعرفة هى التى تغذى فينا ذلك الاهتمام ، ومن ثم فإنها ليست مجرد رد فعل مما تتصف به سمات الكائنات غير البشرية فى تعاملها مع الحياة . وهذه المعرفة تجعلنا قادرين على تنمية الرغبات ، التى تهمنا أكثر من كونها مجرد رد فعل ملازم للفعل المؤكد ، كما هو الحال فى العلاقة التى تحدث فى الحياة غير الإنسانية .

وبالنسبة لماهية المعرفة .. فإن أول شىء فى تحديدها هو أنها عملية اجتماعية ، ومع ذلك فإن أبعادها الفردية لا يمكن إغفالها أو التقليل من قيمتها .

ثم إن عملية المعرفة التى تستلزم النفس الواعية بكاملها من الأحاسيس والمشاعر والذاكرة تؤثر فى معرفة العقل وحب استطلاعه ، حين يركز على الموضوع (المفعول) ، كما يستدعى فاعلين مفكرين آخرين ؛ أى قادرين على المعرفة ، وهذا ببساطة يعنى العلاقة المسماة بالتفكير وغير المنحصرة بين الفاعل العارف والمفعول المعروف ؛ لأنها تمتد إلى فاعلين آخرين .

وهناك جانب آخر أعتقد فى أهميته يتمثل فيما يقال عن الطريقة التلقائية لحركتنا فى العالم ، والتى ينتج عنها نوع من المعرفة والإدراك والإحساس بالعالم ، وكذلك معرفة بالأشياء وبوجودها وعلاقة الآخرين بها . وفى هذه الطريقة التلقائية التى نتحرك بها خلال العالم ندرك الأشياء والحقائق ، ونشعر أنفسنا بما نَحذَر منه ، أو نتصرف بطريقة أو بأخرى بسبب مجموعة معينة من الإشارات نفهمها ونستنبطها ونكتسب من خلالها معرفة فورية ، ولكننا لا نتعلم منها السبب الأساسى فى كيانها وكياننا . وعقولنا فى هذه الحالة العفوية لا تعمل بشكل فكرى ؛ حيث إنها ليست موجهة للمعرفة عن العالم ، كما أنها غير موجهة بروح النقد أو التساؤل أو بطريقة منظمة صارمة نحو فهم العالم ، أو نحو الأشياء التى نميل إليها . وفى تعبير (كامونس) إنما هى : " معرفة مأخوذة من الخبرة " وهى مع ذلك تفتقد تأصيلها من خلال التفكير الناقد .. إنها حكمة بريئة من نوع الإحساس العام العادى تفتقد صرامة أساليب المقاربة المنظمة للأشياء

والموضوعات . ومع ذلك فإنها معرفة ، وينبغى أن تؤخذ بعين الاعتبار . بيد أن نفاذها وتقديرها الضروريين ، إنما يحدثان من خلال احترامنا لها ، حيث تكمن فيها نقطة البداية للمعرفة .

وقد يكون من المفيد هنا أن نفحص صباح أحد أيامنا كمفعول وموضوع للاستطلاع ، لنرى الفرق بين هاتين الطريقتين فى التحرك فى العالم عن طريق التلقائية أو عن طريق المنظمة المنضبطة .

نحن نتحرك ، ونستيقظ ونفرش أسناننا ، ونغتسل مع أول حمام فى الصباح ، ثم نفطر ، ونتحدث مع زوجاتنا وأزواجنا ، ونطلع على أخبار الصباح ، ثم نغادر منازلنا، ونمشى فى الشارع وتتخبط أجسامنا مع الغادين والرائحين من الناس ، ونقف عند إشارات المرور ، وننتظر الإشارة الخضراء التى تعلمنا معناها أيام الطفولة .

إننا لا نسأل أنفسنا عن الأشياء التى عملناها منذ تنظيف الأسنان والاغتسال وشرب القهوة (قليلاً ما نفعل شيئاً خارج الروتين اليومي) للتوقف عند إشارة المرور . وبمعنى آخر ، إننا نمشى فى شوارع الحياة وطرقها الجانبية دون حاجة كبيرة ؛ لأن نسأل أنفسنا عن أى شىء ، فعقولنا هنا لا تعمل بشكل معرفى .

ولو تقدمنا قليلاً فى تحليلنا لحياتنا اليومية فى هذا الصباح ، فسوف نلاحظ أننا إذا أخذنا أى صباح كموضوع لفضولنا لوجدنا أنه من الضرورى أن نخطو خارج خبرتنا اليومية ، وأن نخرج من خلاله لكى نبتعد بأنفسنا عنه ، أى عن الخبرة التى نمارسها فى حركتنا فى العالم كل صباح . وفى الحالتين أعتقد أنه من السهل أن نرى الفرق بينهما .

ومما يستحق الملاحظة أيضاً أن " ابتعاد أنفسنا " عن الموضوع إنما ينتهى إلى أننا "نقترب منه أكثر" ؛ فالابتعاد عن الموضوع يمثل اقتراباً من الناحية المعرفية الإبستمولوجية . وبهذه الطريقة وحدها يمكننا أن نعجب ونستمتع بالموضوع ، وهو فى حالتنا ذلك الصباح الذى قمنا خلاله بطريقة تحركنا فى العالم .

وفى هاتين الحالتين من معرفة الخبرة والمعرفة المنظمة ، أعتقد أنه من السهولة إدراك الفرق الجوهرى ، عندما نكون فى موقعنا ونتحرك بذواتنا الواعية – كما فى الحالة

الثانية – فى هذا العالم . ففى الحالة الأولى أجد نفسى على اتفاق بالحكاية ، التى سردتها حول كيف تحركت خلال ذلك الصباح .

أما فى الحالة الثانية ، فإنى أعتبر نفسى الذات أو الفاعل الذى يصف تحركاتها . ففى حركة الخبرة المرتبطة بالحياة اليومية ، يتعرض إدراكى ذاته لحقائق ، وأفعال ، دون أن يسأل عنها ، ودون النظر فى " أسباب وجودها " .

وأعيد التأكيد هنا بأن هذه المعرفة العادية – وهى فى جميع الأحوال – نوع من المعرفة – التى تنتج من تلك التعاملات اليومية ، إنما تتكون من خالص الخبرة . أما فى حالة الحركة الثانية ، والتى تعمل فيها عقولنا بتوجه معرفى إبستمولوجى ، فإن المنهجية الصارمة هى التى تؤدى بنا إلى اقتراب أكثر من الموضوع حين " نبتعد بأنفسنا عنه " ذات دلالة أهم ، وهى بذلك تؤدى إلى فهم موضوعى لنشاطنا ، وتتيح لنا نوعاً آخر من التفكير . إنه تفكير يتسم بالدقة ويمنح الباحث أو ذات المفكرة هامشاً من الطمأنينة لا يوجد فى النوع الأول من المعرفة القائم على إدراك الإحساس العام والخبرة الرتيبة الراسخة . إن هذا لا يعنى أن نزدرى هذه المعرفة الخبرية البريئة بأى حال من الأحوال ؛ إذ إن قيمتها الضرورية إنما تتأتى عن طريق احترامنا وتقديرنا لها.

والواقع أن مناقشة هذين النمطين من المعرفة تتضمن مناظرة بين الممارسة والنظرية، والتى لا يمكن فهمها إذا ما تم النظر إليهما كما لو كانا فى علاقات تناقض أو تعارض . والواقع أنهما غير منفصلين البتة ، أى إن كل واحد منهما مستقل بذاته ؛ فليس ثمة نظرية فحسب ، ولا توجد أبداً ممارسة بذاتها . ومن هنا فإن مواقف المتحزبين من الفرق السياسية الأيديولوجية وهى تسعى إلى فهم العلاقات المتناقضة فيما بين النمطين من المعرفة ، إنما تقوم باستبعاد واحد منهما ، ومن ثم فهى مواقف خاطئة . وفى هذا السياق نجد أولئك المعادين للمعرفة النظرية ينكرون مصداقيتها ، كما أن النخبة المعنية بالنظريات تنكر مصداقية الممارسة والخبرة .

إن الالتزام بالمنهجية الصارمة فى تناول الموضوعات يمنعى من الميل إلى اصطناع أى من الموقفين ، فليس لدىَّ معاداة للنمط الفكرى ، ولا لنمط النخبة ، ذلك لأن كلاً من النظرية والممارسة يوفر كل منهما إضاءة معرفية للآخر .

ودعونا الآن نفكر قليلاً حول " أن تنمو " بعد أن تناولنا " أن تعرف " فى عنوان هذه الدراسة . ولننظر إلى مفهوم " أن ننمو كموضوع يثير قلقنا وفضولنا المعرفى ، دون أن نتأثر بمشاعرنا المعرفية والشخصية ، وعلينا أن نبحث عن المعنى الأصلى للمفهوم ، ومكوناته .. كذلك علينا أن نتجاوز شئون حياتنا اليومية حيث " نصطدم بكثير من الأشياء " ، من أمثال انتظارنا للضوء الأخضر حتى نعبر الشارع ، أى ما يعنى أننا نفعل ذلك دون تدخل لأى فضول فكرى أو تساؤل حول ما نقوم به . وفى حالة تساؤل أنفسنا حول النمو، لعل أول مقاربة حين نأخذ المفهوم كموضوع للمعرفة ، تكشف لنا عن أنه ظاهرة حيوية . ومن خصائصها أنها خبرة تدخل ذواتها فى حركة دينامية متصلة ؛ إذ إن التوقف عن الحركة فى النمو تعنى المرض والموت .

والنمو يلعب دوراً فى خبرات الحياة ، لأن النساء والرجال خلال تاريخ طويل قد توصلوا إلى التمكن من الإفادة من المواد التى توفرها الحياة ، ليشكلوا منها الوجود الإنسانى وأجوائه الثقافية ، من لغة ورموز ، وتاريخ . وبذلك اكتسب النمو فينا والنمو بيننا معنى ممتداً إلى ما وراء النمو فى مجرد عمليات البقاء والحياة .

والنمو بالنسبة لنا هو شىء أكبر من النمو الذى يحدث للشجر أو الحيوان، حيث إنها – فى اختلافها معنا – لا تستطيع أن تأخذ نموها كموضوع يشغلها ؛ فالنمو بالنسبة لنا عملية يمكننا أن نتدخل فيها. إن مسألة القرار فى النمو الإنسانى لا تكمن فى البشر كنوع أو جنس عام. ومع أننا دون شك كائنات مبرمجة ، لكنه ليس محكوماً علينا فى نمونا بأى حال من الأحوال . وفوق هذا كله نحن مبرمجون لكى نتعلم ، كما أشار إلى ذلك (فرانسوا جاكوب) . إن نمونا الذى أشير إليه فى الورقة المقدمة لهذا المؤتمر ، ليس من نوع نمو الشجر ، أو نمو تلك الكلاب الصغيرة التى يلاعبها أطفالنا . وبالذات، فإنه نظراً لأن لدينا القدرة على " اختراع " وجودنا ، وهو شىء أكثر من

مجرد الحياة ، فإنه يتضمن بل ويحل محل نمو الشجر والحيوان ؛ حيث يصبح من خلال تدخلنا أكثر تعقداً وأكثر إشكالاً بكل ما يعنيه ذلك من صرامة .

وكنقطة بداية لفهم ناقد للنمو بيننا متجاوزاً مجرد الوجود ، فمن الضرورى أن ندرك نتيجته لأننا مبرمجون للتعلم ، نعيش ونختبر ، سوف نجد أنفسنا معرضين إلى الخبرات الناجمة عن العلاقة بين ما نرثه وما نكتسبه . وبذا نصبح كائنات وراثية ثقافية. فنحن لسنا الطبيعة وحدها ، كما أننا لسنا من تشكيل الثقافة والتعليم وإعمال الفكر فحسب . وهكذا فإن النمو لدينا هو خبرة تتأثر بالوراثة البيولوجية ، والظروف النفسية والثقافة والتاريخ والتعليم والسياسة والجماليات والأخلاقيات .

إنه من خلال النمو فى تكامله ، يصبح كل منا فى حالة نمو متناغم فى كينونته . ومع ذلك فإنه عادة ما نفتقر إلى نزعة الكفاح لتحقيق ذلك النمو المتكامل المتناغم ، وهو ما ينبغى أن نطمح إلى بلوغه .

وعلينا أن نطمح كذلك إلى أن ننمو نمواً سويًّا بدنيًّا بما يشمله ذلك من النمو فى كل أعضاء أجسامنا ، وأن ننمو عاطفيًّا بصورة متزنة ، وأن ننمو فكريًّا من خلال المشاركة فى الممارسات التعليمية ، كميًّا وكيفيًّا ، من خلال ما تتيحه المؤسسات التعليمية الحكومية ، وأن ننمو بذوق طيب حيال العالم الذى نضطرب فيه . ونطمح كذلك إلى أن ننمو مع الاحترام المتبادل من أجل التغلب على جميع العقبات ، التى تحول اليوم دون النمو المتكامل لملايين البشر المنتشرين فى مختلف البقاع ، التى ينقسم إليها عالمنا ، وبخاصة بلدان العالم الثالث .

إن إحصاءات المنظمات المحايدة مؤثرة للغاية ، فمنظمات كالبنك الدولى ومنظمة اليونيسيف تورد لنا فى تقاريرها لعامى ١٩٩٠ ، ١٩٩١ مؤشرات مقلقة لمعدلات وفيات الأطفال ، وغياب فرص التعليم المنظم ، إلى جانب ذلك العدد الرهيب من سكان العالم الثالث الذى يقدر بحوالى (١٦٠) مليوناً ممن سيموتون من أمراض الحصبة، والسعال الديكى ، وسوء التغذية .

ولقد حاولت منظمة اليونيسيف تقدير التكلفة اللازمة لتجنب الكارثة العامة فى العقد الحالى ، وتبين لها أننا فى حاجة إلى توفير حوالى (٢,٥) بليون دولار ، وهو كما

يشير تقريرها – مع الأسف الشديد – المبلغ نفسه ، الذى تنفقه صناعات السجائر الأمريكية فى الدعاية لشراء مزيد من بضاعتها .

ومبلغ القول أخيراً ، علينا أن نؤكد أن المعرفة لها كل العلاقات مع النمو . ومما يستحق الانتباه التحذير من أن تكون معرفة شرائح الأقلية المهيمنة وفى أى شكل من الأشكال ، معوقة ، أو أن تكون خانقة ، أو أن تكون مصدراً يفقد الحيوية للأغلبية الساحقة المقهورة .